الفصل الخامس

«أرض بلا شعب..»

وفقًا لأسطورة صهيونية قوية، كانت فلسطين «أرضًا بلا شعب»، ومن هناك كانت مناسبة بصفة خاصة «لشعب بلا أرض»؛ لا سيما عندما استطاعوا أن يزعموا أنها «أرض أجدادهم». وسوف نناقش فى الفصل التالى ما إذا كان اليهود «شعبًا بلا أرض» حقًا.

وهذا الفصل حول الفلاحين الفلسطينيين الذين عاشوا على مدى القرون فى هذه الأرض الخاوية. فهل يمكن أن يكون هذا صحيحًا؟ هل كان الصهاينة يكذبون ببساطة؟ هل كان الناس موجودين وغير موجودين فى الوقت نفسه على نحو ما؟. هذا ما يقوله رئيس وزراء إسرائيل شمعون بيريز زعيم حزب العمل سنة ١٩٨٦م:

«إن الأرض التى جاء إليها المستوطنون اليهود، وهى فعلاً الأرض المقدسة، كانت جرداء وغير جاذبة؛ أرض كانت قد تركت خرابًا مليئة بالمستنقعات والملاريا، تفتقر إلى الموارد الطبيعية. وفى الأرض نفسها عاش قوم آخرون، قوم أهملوا الأرض ولكنهم عاشوا عليها. والواقع أن العودة إلى صهيون كانت مصحوبة بعنف لا يتوقف فى صدام مع السكان العرب القليلين..» (Said 1988: 5).

حسنًا، نعم كان هناك أناس يعيشون هناك، قوم بلا اسم، وعددهم «صغير» وقد «أهملوا» الأرض على أية حال.

وفى الكونجرس الصهيونى الثانى، الذى عقد سنة ١٨٩٨م، فى مدينة بازل فى سويسرا، سُمعت قصة أخرى مختلفة مؤداها أنه كان هناك ٦٥٠ ألف عربى يعيشون على الأجزاء الأكثر خصوبة من «أرضنا» (Gilbert 1998: 17).

والحقيقة، كانت هناك فى السنوات الأخيرة بعض التقارير الأكثر أمانة كتبها عدد

قليل من الذين يمثلون التيار الرئيسى فى الصهيونية . وواحد من أكثرهم إثارة للاهتمام هو نائب عمدة القدس السابق، ميرون بنڤنستى، الذى يكشف كتابه Sacred Landscape: The Buried History of the Holy Land Since 1948 (2000) . عن التلاعب الأيديولوچى الفظ الذى مارسه صانعو الخرائط الصهاينة ودورهم فى التعمية على قرى الفلاحين الفلسطينيين . فقد كان أبوه واحدًا منهم، وكان بنڤنستى يصاحبه وهوصبى فى مهمته لعمل الخرائط . وتستمر التجربة تلاحقه وقد صورها بشكل جيد فى كتابه :

«أتذكر المرة الأولى التى شعرت فيها بمأساة الفلسطينيين تخترق درعى الصهيونى . فبعد حرب سنة ١٩٤٨م بخمس سنوات . . . وأنا أقيس المياه الجوفية، ذهبت للتفتيش على بئر قرية رانا، بالقرب من بيت جبرين، وتذكرت المكان من رحلة قمت بها مع والدى، وقد صدمنى الخراب ـ كانت المنازل الخاوية ما تزال شاخصة، شبح قرية كانت تنبض بالحياة من قبل . جلست وظهرى مسند إلى حوض المياه القديم وتساءلت أين كان القرويون؟ وماذا كانت مشاعرهم؟» .

وكان مقيضًا لبنڤنستى أن يكتشف الإجابة بعد خمسة عشر عامًا بعد الاحتلال الإسرائيلى للقدس سنة ١٩٦٧م . فقد زار معسكرًا للاجئين بالقرب من المدينة وقابل أحد الناجين من رانا :

«فجأة رأيت أمام عينى جغرافية طفولتى . . ولم أستطع مشاركتهم الإحساس بالخسارة، ولكن استطعت مشاركتهم الحنين العميق إلى موطنهم ممزوجًا بالألم من جراء خسارة الأرض والإحساس المزعج بالذنب، لأن انتصارى كان مصيبة عليهم» .

وسأل نفسه السؤال النهائى الذى يجب على كل صهيونى أن يطرحه: «هل حولنا الصراع من أجل البقاء إلى عملية تطهير عرقى، بحيث نرسل الناس إلى المنفى لأننا نريد أن ننهب أرضهم؟» (Benvenisti 2000: 3) .

البحث عبثًا عن الفلاح الفلسطينى

لقد وضع بيريز كلمة «إهمال» بدلاً من كلمة «فراغ» . وهما ليسا نفس الشىء،

ولكن عادة يخدمان نفس الغرض فى تبرير السلوك الصهيونى. كان الأمر يبدو كما لو أن الأرض كانت خاوية لأن العدد «الصغير» من الناس هناك قد «أهملوها». والصهيونية سوف تستعيد الشعب اليهودى مثلما استعادت الأرض. وقد لعب بن جوريون على موضوعات مماثلة. كانت الأرض «حبيسة» على مدى ألفى سنة وكان العرب «مخربين» (انظر الفصل الأول). ولكن على أية حال، فإن كلمة «يهمل» حافزة لمناقشة أوسع. إنها تقودنا إلى مفهوم أوروبا (ومفهوم الصهيونية كجزء من الأيديولوچية الأوروبية) عن الشرق الأوسط عند منعطف القرن العشرين، وهو مفهوم تم تلخيصه على نحو ألمعى فى كلمة وكتاب على السواء: وهو كتاب الاستشراق لإدوارد سعيد ـ أى انبهار أوروبا ـ بـ «المشرق»، والرغبة فى السيطرة عليه، وهو الشرق الأوسط، والشرق الأقصى الذى أسبغت عليه الإثارة بصفة خاصة لأنه كان دائمًا ممزوجًا بتوابل الخطر.

إن «جوهر الاستشراق هو التمييز المتأصل بين التفوق الغربى والدونية الشرقية» (Said 1995: 42).

وإحدى مزاعم النزعة الاستشراقية الأشد تأثيرًا هى أن المجتمعات «الشرقية» حتى على الرغم من أنها تحفظ ميراثًا ثقافيًا مدهشًا، قد صار جامدًا على مرِّ القرون، و«أهمل»، وغير قادر بصفة خاصة على التوافق مع نبضات التحديث الغربى.

ومعظم الشرق الأوسط، بما فيه فلسطين، منذ بواكير القرن السادس عشر حتى بداية القرن العشرين، كان جزءًا من بناء سياسى اقتصادى ودينى، عرف باسم الدولة العثمانية، التى كانت تسيطر على هذا البناء من عاصمتها استانبول.

ويكاد مصطلح عثمانى أن يكون مرادفًا للاستشراق. ومع كل هذا فإن الإمبراطورية العثمانية هى التى جاءت بالإسلام إلى داخل أراضى وسط أوروبا. ومن المؤكد أنها كانت «خطرًا»، و«تهديدًا للحضارة المسيحية» ولكنها كانت على الدوام «مبهرة». وكان المسرح فى انجلترا عصر النهضة مفتونًا بالحكايات من ميادين المعارك الأوروبية عن المعارك بين العثمانيين المسلمين والمسيحيين. ((Said 1995: 61). وبعد ذلك بعدة قرون، كانت أوروبا تستمتع «بالتدهور» الواضح للعثمانيين (Said 1995: 207)،

وجاء فرسان على خيولهم البيضاء، بالمعنى الحرفى أحيانًا، لإنقاذ الشعوب الخاضعة للإمبراطورية العثمانية. وهكذا منحنا الشطر الباكر من القرن العشرين الحكايات الرومانسية عن عميل المخابرات العسكرية البريطانية، لورنس العرب، الذى يقود العرب فى نضالهم ضد القهر العثمانى، وهى رواية استشراقية كلاسيكية لا وجود لها فى الواقع. وبطبيعة الحال، كان البريطانيون، وليس الصهاينة، هم الذين «حرروا» فلسطين «الأرض المقدسة» من العثمانيين.

وسرعان ما اكتشفت المقاومة القومية العربية ضد السيطرة البريطانية والفرنسية على أراضيهم الاسم السياسى المناسب للاستشراق الأوروبى: وهو الاستعمار والإمبريالية. ومع هذا فإن القوميين العرب كانوا يشاركون قاهريهم الجدد شيئًا ما، وهو الرغبة فى التحديث. وبطبيعة الحال كان الفرق هو أن الزعامة العربية البازغة على المستوى السياسى كانت تريد أن تفرض السيطرة على عمليات التحديث وتشكل مصيرها الخاص، وهو أمر مفهوم.

وعلى أية حال، فعندما يتعلق الأمر بفهم تاريخهم الخاص، وهوأمر مهم لبناء حركة مقاومة شعبية، كان القوميون العرب أحيانًا يقعون دونما قصد فى حبائل المفهوم الاستشراقى عن ماضيهم. وعداوتهم التى يمكن أن تفهم أسبابها تجاه قرون من الحكم العثمانى، كانت تقنعهم أحيانًا بالاعتراف بالصورة الاستشراقية عن الإهمال والجمود، وبأن يروا أنفسهم، أو بالأحرى الأجيال التى سبقتهم باعتبارهم ضحايا سلبيين وقعوا فى فخ التدهور العثمانى (Poppe 1999: 18)[1]. وهذا ما جعل من الممكن إضفاء مصداقية على مقولة «إهمال الأرض»، والتى يمكن أن تبدو مماثلة لمقولة «التدهور تحت الحكم العثمانى».

ومن المؤكد، على الرغم من قرن مقاومة الفلاحين الفلسطنيين للصهيونية، فإننا ما ما زلنا نعرف قدرًا أقل مما يجب عن تاريخ الفلاح الفلسطينى، الذى كان بالتأكيد فاعلاً قويًا ومؤثرًا فى مصالحه الخاصة بالمنطقة قبل وصول الصهاينة. وما زالت معلوماتنا أقل كثيرًا مما يجب عن كيفية نجاح الفلاحين فى زراعة الأرض وكيف كانوا على استعداد للتعامل مع ضغوط التحديث. وعلى أية حال، فإن هذا كله بدأ يتغير فى السنوات

الأخيرة. وبدأ جيل جديد من المؤرخين الفلسطينيين فى تناول المشكلة. وثمة إسهام متميز بشكل خاص يتمثل فى كتاب بشارة دومانى بعنوان Rediscovering Palestine، والذى يمثل جوهر هذا الفصل. وجد هذا المؤرخ الفلسطينى البارز صوتًا يعبر عن الفلاحين الفلسطينيين فى القرن التاسع عشر، وأتاح لهم أن يبرزوا بعد قرن من الإهانات التى وصمتهم ظلمًا بأنهم كانوا خارج التاريخ[٢].

إعادة اكتشاف فلاحى فلسطين

العنوان الفرعى لكتاب دومانى هو «التجار والفلاحون فى جبل نابلس ١٧٠٠ ـ ١٩٠٠م». ومدينة نابلس القديمة، والمنطقة الخلفية لها ككتلة واحدة كانت تشكل وحدة منفصلة تُعرف باسم جبل نابلس على مدى عدة قرون. وكانت تشكل بنية تحتية قوية فيما سيصبح معروفًا باسم فلسطين الحديثة. ويجادل دومانى عن قناعة بأن تتبع تاريخ فلسطين فى الفترة السابقة على المستوطنات الصهيونية من خلال جبل نابلس أمر أبعد تأثيرًا بكثير من محاولة رؤيتها من خلال عيون القدس، على الرغم من أننا سوف نحتاج إلى دراسة القدس فى هذا الفصل فيما بعد:

«أثناء القرن الثامن عشر ومعظم القرن التاسع عشر، كانت مدينة نابلس المركز الرئيسى للتجارة والصناعة فى فلسطين. كما أنها كانت تعول عشرات من القرى الواقعة فى وسط مناطق التلال التى كانت تمتد من الجليل إلى الخليل وكانت سكنًا لأكبر مجتمعات الفلاحين وأكثر استقرارًا منذ العصور القديمة» (Doumani 1995: 1).

وبمعنى أوسع، كانت هناك بحلول منتصف القرن التاسع عشر، حوالى ثلاثمائة قرية تدير وجوهها شطر نابلس، وهى مساحة معتبرة. وكانت هذه القرى تمتد بطول السهل الساحلى من حيفا إلى يافا فى الغرب، إلى عجلون والبلقاء وراء نهر الأردن فى الشرق، وكذلك محور يمتد من الشمال إلى الجنوب من الجليل إلى تلال الرملة والبيرة (Doumani 1995: 30). وكان هذا يتضمن مرج ابن عامر (والذى يُعرف فى إسرائيل بوادى إسرائيل).

«أكثر السهول خصوبة فى فلسطين كلها، فى المنطقة الخلفية لجنين التى اشتهرت

بمحصولاتها الوفيرة من الحبوب، وكذلك بجودة التبغ الذى تزرعه والبطيخ والقطن. وكانت لهذا الوادى الفسيح أيضا أهمية استراتيجية: فقد كان يشكل أوسع ممر يربط الساحل بالداخل ويتفرع عنه واحد من طرق التجارة الرئيسية إلى دمشق. وعلى ترابه جرت معارك شهيرة عديدة، منذ عصر الفراعنة إلى... صلاح الدين و.. ضربته الحاسمة التى أنزلها بالجيوش الصليبية» (Doumani 1995: 31).

وفى القرن التاسع عشر صار السهل، وبلدة السوق القديمة به وهى الناصرة، بؤرة الصراع المسلح بين العشائر الحاكمة من جبل نابلس والجليل (Doumani 1995: 31, 2-41) وفى القرن التاسع عشر، صارت متمركزة بأيدى الكبار ملاك الأراضى الذين كانوا ينتجون كميات كثيرة من الغلال للسوق العالمى. وسوف نتناول بالتفصيل فى هذا الفصل الضغوط على صغار الملاك من الفلاحين لكى يسمحوا بحدوث هذه العملية. وقد برهنت إحدى عمليات شراء الأراضى الكبيرة بوجه خاص فى هذا السهل، والتى قامت بها عائلة تجارية مسيحية لبنانية من أصول يونانية هى عائلة سوروق، على أنها كارثة لا ترد على جميع الطبقات الاجتماعية فى فلسطين، لأنه فيما بعد، تمت إعادة بيع الأرض إلى المستوطنين الصهاينة (Doumani 1995: 270n. 54).

وفكرة أن المدينة تحقق استقرار القرى، «الجبل» فى جبل نابلس، تساعدنا على فهم مجتمع قوى، مستمر، وقائم على أساس إقليمى مكون من التجار والفلاحين ويتغذى على القدرة الإنتاجية للأرض. وقد تحول أيضًا ليكون قاعدة إنطلاق ناجحة فى قيادة الاستجابة للتحديات لسوق المنتجات الزراعية للفلاحين والتى فرضها تدخل الغرب الأوروبى.

وقد أدى توقيع معاهدة ١٨٣٨م للتجارة الحرة بين انجلترا وتركيا، والتى أعقبتها «التنظيمات»، وهى برنامج الإصلاح السياسى والإدارى والمالى للإمبراطورية العثمانية، إلى تسارع تأثير الضغوط الأوروبية الغربية (Doumani 1995: 106). بيد أن الفلاحين الفلسطينيين برهنوا على أنهم لا يخشون شيئًا من التجارة الحرة:

«فى الربع الثالث من القرن التاسع عشر، تولدت فوائض زراعية كبيرة حيث كانت المنتجات الفلسطينية من القمح، والشعير، والسمسم وزيت الزيتون، والصابون

والقطن تباع فى السوق العالمى. وعند هذه المرحلة زادت الصادرات عن الواردات من البضائع الأوروبية المصنعة آليا» (Doumani 1995: 4).

وقد استولت القدرة الإنتاجية لجبل نابلس، وكذلك جماله المذهل، على خيال زوار المنطقة من الرحالة المسلمين فى العصور الوسطى، إلى الشباب الإنجليز الباحثين عن المغامرة فى القرن التاسع عشر:

«كانت تقع بين جبلين شديدى الانحدار فى واد ضيق ولكنه غزير النبات ويحيط بها حزام عريض من الغابات الصغيرة، ومزارع الكَروم، وبساتين الفاكهة، وعدد من أشجار النخيل المتناثرة. هذه هى مدينة نابلس القديمة التى طالما وصفت بأنها تشبه «قصراً فى حديقة» على حد تعبير شمس الدين الأنصارى فى القرن الرابع عشر.

والسر هو الماء ـ السبب الأساسى فى أن نابلس كانت قادرة على أن تعول عدداً كبيراً من السكان ونطاقًا واسعًا من مؤسسات الصناعة. فقد تم حفر قنوات لحمل مياه عيونها الاثنتين والعشرين المتدفقة لكى تصب فى الفسقيات العامة بالمدينة، وأفنية المساجد، والحدائق، ومعامل دباغة الجلود، ومعامل الصباغة والفَخَّار، وكذلك البيوت الخاصة للأثرياء. كذلك كانت المياه تحمل إلى الوادى الذى يمتد طوله ١٢٢٠ متر لتسير فى قنوات مائية تجاه الغرب.

كانت تغذى قنوات الرى وتدير الأحجار المستديرة الضخمة لمطاحن الغلال. وفى حرارة الصيف كانت المياه المتبخرة تشكل غلالة زرقاء رقيقة من الضباب تغلف المدينة وتزيد من سحرها.

ولا يمكن المبالغة فى جمالها.. وعناقيد البيوت ذات الأسقف البيضاء المستكينة فى أحضان كتل من الأشجار، والزيتون، والنخيل والبرتقال، والمشمش، وكثير غيرها مما يضفى تنوعًا على سجادة المشهد بكل ظلال اللون الأخضر.. وكل شىء طازج وأخضر، وناعم، ويجسد صورة، مع الخضرة والظلال والماء فى كل مكان.. وثمة ضباب أزرق رقيق منبثق من العيون ومنافذ البخار.

هذا ما كتبه تريسترام (H.B. Tristram, London 1881-2). وعبارة «دمشق الصغيرة»، التى يستخدمها سكان نابلس باستمرار لوصف مدينتهم، تلخص المشهد، والإحساس وجوهر المدينة» (Doumani 1995: 22).

ويوافق المبجل چون ميلز على هذه العبارات العاطفية المتوهجة: «والسكان فخورون بها للغاية، ويظنون أنه لا يوجد مكان فى العالم يضاهيها» (Doumani 1995: 21) كان ميلز فى مهمة خاصة فى نابلس. فقد أتى إليها للبحث فى أمر جماعة صغيرة من السامرة، هم بالفعل الوحيدون ممن بقى من الناس الذين يزعمون أنهم ينحدرون من نسل السامرة الذين تحدث عنهم الكتاب المقدس. وأحد الجبال المنحدرة التى تطل على نابلس والذى يسميه الكتاب المقدس جبل شيكيم (Benvenisti 2000: 13)، هو جبل جرزيم، المركز الروحى للسامرة. ويبدو أن السامرة قد بقوا جزءًا من جماعة نابلس على مدى ما يزيد على ٢٠٠٠ سنة. وفى القرن التاسع عشر كان لهم الحى الخاص بهم هناك. وكانت قلة منهم تعمل كتبة أو محاسبين فى الحكومة، وكان منهم واحد أو اثنان من التجار الأثرياء، ولكن معظمهم كانوا فقراء نسبيًا من تجار التجزئة أو من الحرفيين. (Doumani 1995: 23).

كانت هناك أيضًا جماعة مسيحية صغيرة، وكذلك وُجدت جماعة يهودية صغيرة العدد فى نابلس فيما مضى، وهو ما يدل عليه ذلك الطريق الصغير الذى اتخذ شكل الدرج قرب السوق المركزى، وكان يسمى «درج اليهود» (Doumani 1995: 267n. 22).

ألم يتم تبرير ذلك القدر القليل من التساهل الاستشراقى هنا، وإن يكن معكوسًا؟ لأن من المؤكد أن هناك سخرية فى أن قلب فلسطين أواخر العصور الوسطى وبواكير العصور الحديثة كان فى نابلس، فى ظل الجبل السامرى العظيم، الذى كان منذ ألفى سنة مضت المركز الروحى «للإسرائيليين» المنشقين، الذين نفاهم الأحبار اليهود فى القدس (انظر الفصلين الأول والثانى). وهنا ثمة اتساق شعرى، إن لم يكن تاريخيًا، على الأقل. وكم كان مناسبًا أن يعتبر السامريون الموجودون فى نابلس الآن أنفسهم فلسطينيين وليسوا إسرائيليين[٣].

المقاومة المسلحة من جبل النار

كان لجبل نابلس، وما يزال، اسم آخر هو «جبل النار». وهو اسم يشهد على ولاء إقليمى حار وعلى حماسة السكان المحليين واستعدادهم لحمل السلاح لحماية أسلوب حياتهم.

فى سنة ١٧٩٨م جاء ناپوليون بوناپرت إلى القاهرة، وقصد غزو فلسطين. وكتب الشيخ يوسف چرار، «متسلم» ناحية چنين قصيدة يحض فيها زملاءه من زعماء جبل نابلس على الاتحاد تحت راية واحدة ضد القوات الفرنسية. وعلى الرغم من أن الشيخ چرار كان يطيع الأوامر الصادرة إليه من أعلى، فإن التزاماته الحقيقية كانت محلية حسبما عبَّر عنه فى دعوته للبيوت والعائلات فى الحضر والعشائر فى الريف:

يا بيت طوقان سلَّوا سيوفكم(*)

وامتطوا خيولكم الغالية

يا بيت غر، أيها النمور القوية، قووا صفوفكم الباسلة

عبئ رجالك يا محمد عثمان

واجلب الخيل من كل النواحى

وأنت يا أحمد القاسم، أيها الأسد الجسور

تصدر الصفوف المتقدمة

«ولم يحدث مرة واحدة أن ذكرت القصيدة فى أبياتها الواحد والعشرين الحكم العثمانى، مما يدل على أنه لم تكن هناك الحاجة إلى حماية الإمبراطورية أو المجد.. فى خدمة السلطان هى الدافع» (Doumani 1995: 17). لقد كان الشيخ چرار ابنًا لإحدى تلك العائلات المحلية الحاكمة. وكان على العثمانيين أن يعتمدوا عليهم للحفاظ على حكمهم، ولكن هذا كان يعنى أيضًا أن التوترات مع هياكل السلطة الأعلى فى الإمبراطورية لم تكن أبدًا بعيدة عن السطح. وتكشف القصيدة عن افتراض أن العائلات الحاكمة كان بوسعها تعبئة الميليشيات المسلحة من الفلاحين المحليين. وعلى الرغم من أن هذه الروابط ستترهل بمرور الزمن، فإن تقاليد الفلاحين فى الدفاع المسلح عن مناطقهم سوف تتعمق، بما يحمله ذلك من مضامين خطيرة بالنسبة للقوى الحاكمة فى القرن العشرين: أى بريطانيا وإسرائيل.

ولقد لعب جبل النار دورًا رئيسيًا سنة ١٨٣٤م ضد القوات المصرية الغازية.

(*) هذه ترجمة اجتهادية؛ لأننى لم أعثر على نص القصيدة باللغة العربية ـ المترجم.

وفى ثورة ١٩٣٦ ـ ١٩٣٩م ضد الحكم البريطانى.

وفى الانتفاضة الفلسطينية ضد الاحتلال الإسرائيلى والتى تفجرت فى سنة ١٩٨٧م (Doumani 1995: 22).

نقل المحصول إلى السوق: الفلاحون والتجار

كانت نابلس، مدينة، بيد أنها كانت مدينة فلاحين:

«إذ كانت إيقاعات الحياة فيها تعكس التقويم لجماعة الفلاحين. فالحركة الناشطة المزدحمة لأطنان الزيت التى توضع فى الآبار تحت الأرض فى المبانى الضخمة لمصانع الصابون بعد جنى محصول الزيتون فى الخريف، مثلاً، لم يكن يفوقها سوى جمع القطن الخام الذى كان يصل إلى المدينة لكى يتم حلجه وغزله فى الصيف. لم يكن ثمة خط حاد يفصل بين المدينة والريف. فقد كانت نابلس تشبه بطريقة ما قرية كبيرة جداً. فعند شروق الشمس، كان كثير من النابلسيين يعبرون بوابات المدينة لكى يعملوا فى مزارع الزيتون والكروم والبساتين التى كانت تغطى المنحدرات التى تشبه الشرفات، وكذلك فى الحقول، ومزارع الخضروات، وطواحين الغلال التى كانت متناثرة خلال الوادى. وفى اتجاه معاكس، كان فيض من الفلاحين يصبُّون فى المدينة لكى يبيعوا بضائعهم ولكى يبحثوا عن ملابس الزفاف، وأدوات العمل، وأوانى الطبخ، والأرز، والقهوة والعديد من الأشياء الأخرى.. وكان كثير منهم يبقون بالمدينة أياماً قليلة.. لكى يصيروا أكثر اعتياداً على... مئات الدكاكين.. والأسواق المغطاة لتجار المنسوجات.. والجوامع المركزية الخمسة.. والحصون الكبيرة التى تشبه إلى حد كبير المجمعات للأسرات الحضرية الحاكمة، آل نمر، وآل طوقان، وآل عبد الهادى» (Doumani 1995: 26-7).

وفى الأراضى التى تشكل ظهير نابلس كان الفلاحون قد تعلموا على مدى آلاف السنين أن يستفيدوا من كل ملمح طبوغرافى فى الأرض. فقد كانت الحقول تزرع بالغلال والخضروات، وكانت التلال تمهد على شكل مصاطب وتزرع الأشجار، أما الأرض الصخرية الأكثر ارتفاعاً فكانت تستخدم للرعى. وحتى العقود الأخيرة من

الحكم العثمانى، كان معظم الفلاحين من صغار الملاك، على الرغم من أن حقوقهم القانونية فى الأرض بقيت غير واضحة[٤].

وقد عاش الفلاحون فى مناطق التلال فى جماعات قروية متقاربة كانت تختلف من حيث الحجم ما بين عشرات قليلة إلى مئات قليلة من السكان. وكانت معظم القرى تتكون من عشيرتين إلى أربع عشائر فى المتوسط وبعض العائلات الممتدة. وكان أساس التضامن الجماعى هو تنظيم المجتمع الفلاحى فى عشائر (حمولة، حمولات): وهى جماعات سلالية يعتقد أنها تنحدر من جد مشترك. وكان نظام العشيرة (الحمولة) يوفر شبكة أمان كانت تساند العائلات المفردة فى أوقات الشدة، وكان مناسبًا تمامًا لتقلبات الأطوار فى أقاليم التلال ذات التربة الخفيفة والتى تعتمد الزراعة فيها على ماء المطر (Doumani 1995: 26, 28). وكانت قوانين السلوك تحسم بنظام متعمق الجذور من الممارسات العرفية، كانت تحدد الحقوق والمسئوليات. ولأنها كانت انعكاسًا لجذور بدوية، فإن هذه الأعراف اختلفت كثيراً عن الشريعة الإسلامية التى كانت هى السائدة فى المراكز الحضرية. وبعبارة أخرى، فإنه حتى مع حلول القرن التاسع عشر، كان هناك قدر كبير من الاستقلال الذاتى لدى الفلاحين فى الأمور القانونية والأخلاقية والشخصية والمالية القائمة على أساس عشائرى.

ومع هذا، مهما كان فخرهم باستقلالهم، فإن الفلاحين وعشائرهم كانوا بحاجة إلى تجار الحضر لكى يطرحوا منتجاتهم فيما وراء الأسواق المحلية. وقد أوضح الفصل الرابع الممارسة القديمة التى استمرت على مر القرون للأنشطة التى يقوم بها التجار العرب فى جميع أنحاء عالم البحر المتوسط. وفى القرن التاسع عشر ظهر سوق جديد يتوسع بسرعة فى أوروبا. فقد كان لدى التجار المعرفة التى يحتاج إليها الفلاحون وبطبيعة الحال كان لدى الفلاحين المنتجات التى كان التجار يطلبونها. وكانت العلاقات بين التجار والفلاحين مرعية بعناية. وكان على التجار بناء الثقة، وهنا كانت القيم الدينية مهمة. كانت شبكات العمل هذه غير رسمية، إذ لم تصدق عليها الدولة العثمانية، وغالبًا ما كان التجار يقدمون القروض الائتمانية. وقد كان «الشرف» بوصفه قيمة إسلامية، هو الذى يتعزز، وكان يمكن بناؤه فى المواقف تجاه عدم الوفاء بالديون. فقد كان يمكن لكل من الجانبين أن يناور حول الدين، وغالبًا ما كان يحدث

هذا. ولكن التاجر لم يكن يستطيع أن يتحمل مغبة السقوط إلى درجة الخزى مع عشيرة ريفية كان قد أمضى معها سنوات هو وعائلته، ربما كانت أجيالاً، وهو يبنى علاقات طيبة. ويوضح دومانى هذا بمناقشته عن زيجات الفلاحين.

كانت الزيجات، وما تزال، مهمة بشكل لا يصدق فى حياة الفلاحين بالقرى. وشراء ثوب الزفاف وغيره من الهدايا كان يمثل مناسبة لزيارة المدينة. ويبدو أن احتفال الزفاف كان يبدأ بالزيارة، حيث كان الفلاحون يصلون فى صورة عظيمة: يغنون ويرقصون ويحملون الهدايا (Doumani 1995: 84) وكانوا يمكثون عدة أيام فى بيت التاجر الذى يعتزمون شراء معظم احتياجاتهم منه. وكانت مسألة مبدأ أخلاقى، كما كانت تشى بممارسة تجارية، لأن التاجر وعائلته كان عليهم إظهار دلائل الكرم والصداقة. وكان يمكن للائتمان أن يمتد بحسب توقيت الزواج وعلاقته بالمحصول.

وكان الطقس الذى يحيط بعملية جمع الديون راسخًا فى الثقافة المحلية. وكانت المنازعات بشأن مستوى الدَيْن شائعة؛ فقد كان جامع الديون، وهو غالبًا فلاح يعمل بأجر لحساب التاجر، يُرسل إلى الريف. وكانت نقطة شرف لجامع الديون أن يلقى معاملة محترمة. وكانت تقاليد الضيافة الفلاحية يعنى أنه كان يستطيع أن يبقى فى غرفة خاصة فى مربع القرية ويتم تزويده بالطعام والشراب. ولم يكن هذا يمنع الفلاحين من ممارسة تكتيكات ماهرة فى المراوغة. وبينما كانت للتاجر فى النهاية قوة أكبر، كان الفلاح وعشيرته هم السادة المتنفذين فى ممارسة الضغوط «لإعادة جدولة» الديون. وعلى أية حال، كان للحداثة أن تقلب هذا الميزان الحساس بين المدينة والريف.

الزيتون هو الوثيقة المادية للتاريخ

هكذا كتب مراقب بريطانى ثاقب البصيرة فى منتصف القرن التاسع عشر (Doumani 1995: 178). وقد صارت شجرة الزيتون العتيقة تستخدم رمزيًا، ليس بصفتها رمزًا وطنيًا فحسب بالنسبة للفلسطينيين، تذكرهم بزمن لم يكونوا فيه لاجئين أو مضطهدين تحت الحكم الاستعمارى، وإنما باعتبارهم فلاحين أحرارًا يعيشون على ثمار الأرض، ولكن أيضًا باعتبارها رمزًا ماليًا بالمعنى الحرفى للكلمة. هذه الثمرة النبيلة هى التى أدت إلى وصول الرأسمالية، والعلاقات فيما بين الطبقات الاجتماعية الحديثة، إلى داخل القرية الفلسطينية فى القرن التاسع عشر[٥].

وهنا مستخرج من خطاب كتبه محمد بك عبد الهادى، رئيس المجلس الاستشارى بنابلس، إلى حاكم القدس سنة ١٨٥١م:

«لقد نقلت إلى المجلس أمركم الكريم متضمنًا التماس أهل قرية چابا. . الذى يتهمون فيه شيوخ قريتهم بإجبارهم على توقيع للسندات عن هذه السنة بمقدار ١٢٠٠ إناء من الزيت، وللسنة القادمة ١٤٠٠ إناء. . .» (Doumani 1995: 146).

وقد أوضح عبد الهادى بك، فى شرحه وتفسيره للسندات المستحقة للحكومة، أن تلك كانت ممارسة معتادة بين أهل القرى. . أن يبيعوا محصولهم القادم من زيت الزيتون مقدمًا بأسعار منخفضة من خلال عقد (سلَم)(*) مقابل مبلغ الضرائب المستحقة على قريتهم (Doumani 1995: 147).

والآن يعرض دومانى المهارات الشرعية الماكرة فى كسر هذه الوثائق غير العادية التى كانت تصل إلى المحاكم الإسلامية فى فلسطين تحت الحكم العثمانى. وهو أيضًا جعل من نفسه خبيرًا فى استخدام عقود «السلَم» لإقراض الأموال فى تغيير صفتها، وهو الأمر الذى كان يحكم العلاقات بين الفلاحين والتجار، وفى بعض الأحيان بين قرى الفلاحين بأسرها وسلطات جباية الضرائب فى هذه الفترة.

كان عقد «السلَم» عبارة عن قرض نقدى لأحد الفلاحين يقدمه أحد التجار مقابل حقه فى أخذ محصول ما، عادة ما كان محصول زيت الزيتون، بغض النظر عما يدره المحصول فى المستقبل، والأحوال الجوية. . إلخ. وكان يمكن أيضًا تأجيل دفع الضرائب أو يُعاد التفاوض بشأنها على نفس الأساس، حيث يتم ترتيب الأمر بشأن المبلغ الذى سيتم دفعه على هيئة كميات من زيت الزيتون فى تاريخ لاحق. ومن الواضح، أن هذا النظام كان عرضة لسوء الاستغلال. إذ إن تجار الزيت المحليين الذين بدأوا السيطرة على مجلس المدينة، كانوا يجمعون الضرائب أيضًا لصالح الدولة العثمانية! وربما كان الاتفاق يتضمن أيضًا رسوم فائدة خفية. وكان عدم الوفاء بالدين يمكن أن يؤدى بالفلاح إلى تسليم أرضه مرغمًا، أو حقوقه فى الأرض، إلى أحد التجار. ويبدو أن التجارة «المستقبلية» فى تبادل الأسهم العالمية فى زمننا كانت لها سوابق مدهشة.

(*) بيع السلَم، هو أن يقبض البائع الثمن مقدمًا، ويُسلم البضاعة آجلا ـ المترجم.

هذه المجادلات تمت بشكل كامل فى الفصل الذى عقده دومانى تحت عنوان «الاقتصاد السياسى لزيت الزيتون»، وهو ما يصر على أنه أمر أساسى لفهم الاقتصاد الفلسطينى فى تلك الفترة. وهو فصل ممتاز ويكاد يكون من الصعب أن نوفيه حقه هنا. ومع ذلك يجب أن نحاول تقديم الخطوط العريضة الأساسية لكى نوضح السرعة التى كان على الاقتصاد الفلسطينى الفلاحى أن يتوافق بها مع العالم المتغير بسرعة.

وبطبيعة الحال، فإن الالتماس المقدم من الفلاحين المربوطين بأغلال الديون ليس أمراً جديداً. إذ إننا نجد هذه العلاقات الاستغلالية على الأرض تضرب بجذورها العميقة فى العصور التاريخية القديمة. بيد أن المثير هنا هو الطريقة التى صارت بها هذه العقود لإقراض الأموال، والصراعات التى كانت تتولد عنها، أدوات ووسائل للتحديث.

وإذا عدنا إلى خطاب الحاكم: فإن فكرة أن الفلاحين يستطيعون أن يقدموا التماساً إلى الوالى كانت جديدة بحد ذاتها. فعلى مدى أجيال كان الفلاحون يتجاهلون محاكم المدن. إذ كانوا معتادين على حسم المنازعات من خلال قوة عشائرهم الريفية. والآن يتجاهلون عشائرهم، ويتجاوزون المجلس الأعلى فى نابلس ورئيسه (تاجر الزيت) عبد الهادى الذى كان يعتمد على شيوخ القرية فى جباية الضرائب، وذهبوا إلى القدس بحثًا عن العدالة.

كذلك أدى الاقتصاد الجديد إلى تقسيم العشائر. إذ أن التماسهم هاجم زعماء عشائرهم لأنهم خدعوهم، وهو ما يشى بتغيير أساسى جرى آنذاك. فقد كان زعماء العشائر- سواء عن وعى أم لا - يتوقعون تشكيل ما يسميه دومانى طبقة وسطى ريفية. وكانوا يحتذون خطى تجار المدن من حيث إنهم رأوا فى عقود إقرض الأموال آلية لتكوين مبالغ للربح الشخصى وللاستثمار على السواء. وفى الوقت نفسه كان فلاحو القرية مضطرين إلى تنظيم أنفسهم بشكل مستقل لحماية مصالحهم، بالالتماس السلمى أولاً، ثم يتبعه فى حالة الضرورة، كما سنرى، أساليب أكثر عدوانية. كما أخرجت القرى أيضًا نفراً من الناس سيكونون هم المتعهدين ممن لم يكونوا زعماء عشائر. وبعبارة أخرى، فإن الاختلافات بين الطبقات الاجتماعية فى عدة مستويات كانت تتبلور فى الريف.

وقصة عبد الرحمن، وهو فلاح من نابلس من قرية «عقربة»، تستدعى الكثير من هذه الموضوعات. فقد وقّع على عقد «سلَم» مع تاجر مسيحى من يافا سنة ١٨٥١م، الذى كان على صلة بالسوق الأوروبية المتوسعة فى استيراد السمسم الفلسطينى. وكان المقاول الفلاح يسافر إلى يافا لعقد الصفقة مع التاجر، متجاوزًا الكبار فى القرية وتجار نابلس أيضًا.

هذا التطور لم يكن فريدًا بأى حال، وهو يقوض الكثير من الدراسات التى تستمر فى رؤية الفلاحين الفلسطينيين «أثناء الفترة العثمانية يعيشون فى قرى منعزلة لا يشتغلون سوى بالزراعة التى تقيم أودهم. . فقد كان كثير من الفلاحين الفلسطينيين متوافقين بشكل حاد مع متغيرات الطلب العالمى وتصرفوا وفقًا لها» (Doumani 1995: 141). وثمة أمثلة أخرى تتضمن شركات أعمال أقامها الفلاحون، تتقاطع خطوطها خلال القرى، والعشائر، بل الخطوط الدينية، وتضع تسهيلات عقود «السلَم» فى منح القروض أمام الفلاحين المحليين الآخرين (Doumani 1995: 167).

والعقد الذى وقعه عبد الرحمن مثير بشكل خاص لأنه يحمل ملامح متناقضة. فقد احتوى على حافزين: فقد كان يغطى تكاليف النقل من القرية إلى ميناء على البحر المتوسط، كما تضمن ترتيبًا لاقتسام الربح: «كان من الممكن أن يؤدى عقد «السلام» إلى تشجيع التجارة، ويساعد على مواجهة الحاجات إلى رأس المال المحلى، ويزيد الاستثمارات فى الإنتاج الزراعى، ويحسن النمو الاقتصادى بل يفيد كلاً من الطرفين» (Doumani 1995: 152).

ومن ناحية أخرى، فإن هذه العقود، بما فيها هذا العقد، كانت تحمل دائمًا إمكانية تدمير معيشة الفلاح لصالح التاجر فى حالة عدم الوفاء بالدين. وهذا هو ما حدث بالضبط لعبد الرحمن، الذى أرغم على بيع أرضه للتاجر المسيحى عندما لم يستطع الوفاء بما يخصه من العقد. (Doumani 1995: 163).

هكذا سهلت العقود للرأسمالية بطريقة كلاسيكية. فقد كان بوسع التجار الحصول على المحاصيل المحلية للأسواق العالمية المتنامية مع مكافأة أنه فى حالة عدم الوفاء بالدين يمكنهم السيطرة على الأراضى الزراعية داخل فلسطين. وكانت هناك أقلية من الفلاحين استطاعوا أن يلعبوا اللعبة أيضًا ولم يكونوا هم الخاسرين دومًا. لأنه من

الواضح أن تجارة التصدير الجديدة قد جلبت ثروات طائلة لبعض القرى الفلسطينية، وهو ما يبدو أنه أزعج القنصل البريطانى فى القدس. وفى سنة ١٨٥٦م. أرسل تقريراً إلى لندن مؤداه أن القرويين كانوا يصدرون الغلال «ويقبضون بجشع على النقود فى مقابل هذا». وبعد ذلك بسنتين، يبدو أن الأرباح كانت تساعد الفلاحين على «شراء الأسلحة وتزيين نسائهم» (Schotch 1982: 12).

الصراع الطبقى

بمنتصف القرن التاسع عشر، كان تجار الزيت فى نابلس قد راكموا ما يكفى من الأرباح من الفلاحين بما يتيح لهم القيام بتوسع كبير فى مصانع الصابون القائمة على أساس زيت الزيتون بالمدينة. وقد صارت أنجح صناعة محلية فى المنطقة، كما صارت صناعة لا تواجه أية منافسة أوروبية. ومن سوء الحظ أن المجال لا يسمح سوى بمناقشة مختصرة للغاية.

كانت للصابون النابلسى شهرة فى كافة أرجاء عالم البحر المتوسط، وهى شهرة ترجع إلى القرن الرابع عشر، وعلى مدى عدة عقود فى القرن العشرين، سوف يكتشف الفلسطينيون، كما حدث بالنسبة لبرتقال يافا، طريقة جديدة ستكون شهرة هذا المنتج مدوية فى عالم أوسع، وذلك عندما قام رجال الأعمال اليهود بتسويق الصابون الذى صنعوه فى مستوطناتهم على أنه فى نفس جودة الصابون النابلسى (Doumani 1995: 185).

ويضع دومانى ضمن كتابه أوصافًا بالرسم لمصانع الصابون بنابلس. وهى إحدى الخصائص المذهلة التى تقوض نمطية الاستشراق الكلاسيكى بتصوير البدو على أنهم قوم يعيشون فى الصحراوات النائية ويمارسون السلب والنهب. فإلى جانب الفلاحين الذين يسلمون زيت الزيتون إلى الآبار الكبيرة تحت الأرض فى المصانع، برهن البدو على أنهم «عامل حيوى فى الإنتاج». فقد كانوا يجمعون سنويًا نبات الحرض، ثم يحرقونه ويحملون منه على الجمال ثلاثة آلاف حمل من رماده الذى يسمى «القلو» إلى نابلس. وفى المقابل كانوا يحصلون على النقود والأرز، والتبغ والسكر والصابون والبُن. (Doumani 1995: 204).

وقد نشبت صراعات مريرة للسيطرة على مصانع الصابون عندما حلَّ تجار الزيت ـ الذين كونوا ثرواتهم حديثًا من جراء عقود السلام ـ محل العائلات الحاكمة القديمة. وفى الوقت نفسه، أصر الموظفون العثمانيون على فرض نظام ضريبى أشد وطأة. وقد تمرد أصحاب مصانع الصابون. وإذ استخدموا قاعدتهم المتمثلة فى مجلس مدينة نابلس الذى كانوا يسيطرون عليه، ونظموا إضرابًا ضد الضريبة سنة ١٨٥٣م.. «وكان أكثر ما يثير اعتراض هؤلاء التجار هو محاولة الحكومة العثمانية أن.. تقتطع من أساسهم المادى دون أن تقدم أية حماية حقيقية ضد الهيمنة الأوروبية» (Doumani 1995: 231). لقد كانت هناك بورجوازية فلسطينية جنينية تستعرض عضلاتها ضد التدخل الخارجى.

ولا نعرف ما إذا كان الفلاحون قد ساندوا الإضراب ضد الضريبة أم لا، لأنهم استاءوا لدرجة عظيمة من أن تجار الزيت كانوا يثرون على حسابهم بواسطة عقود «السلَم». وقبل سنة من الإضراب الضريبى، كان على مجلس مدينة نابلس أن يشرح للسلطات العثمانية فى القدس السبب فى أنهم سجنوا بعض الناس فى قرية عسيرة كانوا قد قصفوا مندوب أحد تجار الزيت بالأحجار وكسروا سيفه ومسدسه (Doumani 1995: 173).

«ويمكن للمرء أن يقول إنه من الناحية السياسية. كان للتوتر المتصاعد بعض الخصائص التى تميز الصراع الطبقى (Doumani 1995: 180). وقد لخص الفلاحون من سكان قرية «تلوظه» الأمر كله فى أغنية ساخرة تقول:

«الله أكبر عندما يتجمع التجار [على أرض القرية]..

وتعلو أصوات جامعى الديون

وينصت المرابون لأصوات الأغنام العائدة، ثم يقفزون مع أصحابهم من الشرطة، يبحثون عن ضحية يجزون صوفها..

الله أكبر عندما يحيى أهل القرية موسم زيت الزيتون المبارك والثرى. يذهبون إلى سوق المدينة لشراء مؤونتهم. ولكن الدائن يطلب حقه، أو يتجدد الدَيْن بفائدة

مـضـاعـفـة. . والروح الفـقـيـرة عليـهـا الخـضـوع والله أكـبـر أكـبـر. . .(*) (Doumani 1995: 94).

أول عمدة للقدس
توضيح الهوية الفلسطينية

متى تبلورت فلسطين هوية وطنية فى عقول الناس الذين عاشوا فيها؟ حتى الآن كنا مشغولين بمناقشة تحديث المجتمع الذى كان جزءًا من الإمبراطورية العثمانية. وفى النصف الأخير من القرن التاسع عشر، بدأ المفكرون الفلسطينيون الحضريون من أصحاب العقلية المستقلة وذوى الخلفيات التقليدية، يظهرون فى البناء السياسى والإدارى للإمبراطورية. وفى هذا الخصوص ترشدنا المسيرة الوظيفية ليوسف ضياء (Khalidi 1997: 69-76)[٦].

وُلد يوسف ضياء سنة ١٨٤٢م، وهو أحد خمسة أبناء لموظف محلى كبير بالمحكمة الشرعية الإسلامية فى القدس، وكان من ذلك الجيل من العرب المأخوذين والملتهبين بنفس القدر بالتقدم الذى بدا غير قابل للتوقف لكل الأشياء الأوروبية. وكان الشىء الوحيد لمقاومة الأوروبى هو أن تفهمه أولاً حسبما استنتج يوسف فى نهاية المطاف. وبدأ برنامجًا للتعليم الأوروبى، وتعلم اللغة الإنجليزية والفرنسية والألمانية. واستكمل تعليمه فى استانبول، حيث لفت نظر رجال حركة الإصلاح التركية «تنظيمات»، وهم من رجال الدولة الذين شجعوا طموحاته السياسية. وكانت عملية إعادة التنظيم العثمانية تتضمن ترقية الحكم البلدى المحلى. وكان معنى هذا أن يوسف ضياء، بمرور الوقت، كان قادرًا على السعى للتعيين فى وظيفة أول عمدة لبيت المقدس. وفى هذا المنصب أظهر جدارته وقدراته الفذة على التحديث بالمساعدة فى بدء بناء أول طريق للعربات من القدس إلى يافا، وكذلك تحسين إمدادات المياه فى المدينة. وفى سنة ١٨٧٧م، تم انتخابه فى البرلمان العثمانى.

(*) من المؤسف أننى لا أعرف نص هذه الأغنية الشعبية والتى تبدو جميلة فى لغتها الأصيلة، ومن المؤسف أيضا أن هذه الترجمة أفقدتها جمالها الحقيقى واعتذر للقارئ لأننى لم أستطع الوصول إلى النص الأصلى ـ المترجم.

ولم يكن هذا سوى ازدهار قصير العمر للديمقراطية فى الإمبراطورية العثمانية. وفى سنة ١٨٧٨م، أوقف السلطان البرلمان وفرض الحكم الفردى المباشر. ومع هذا كان يوسف قد ترك بصمته باعتباره رجل دولة ديمقراطيًا ثوريًا. ووصفه أحد الدبلوماسيين الأمريكيين باعتباره «الخطيب الأول وأقدر مجادل بالبرلمان». وربطه دبلوماسى آخر بصورة «جمهورى فرنسى». ولا شك فى أنه كان مصدر إزعاج للسلطان. لقد كان يوسف ضمن عدة نواب عرب حرموا لفترة وجيزة من دخول استانبول واعتبروا «غاية فى الخطورة».

ثم وضعته السلطات العثمانية تحت المراقبة الدقيقة، وبدأ يتخذ اتجاهًا أكاديميًا، وصار أستاذًا للغة العربية فى ڤيينا، ونشر الشعر العربى الجاهلى وكتب قاموسًا عربيًا ـ كرديًا ـ وكانت طموحاته السياسية فى ذلك الحين قد أحبطت، ولكن من الواضح أنه كان قد أمسك تمامًا بما سيصبح الأجندة السياسية الفلسطينية فى القرن العشرين.

فقد استعاض يوسف عن الحظر المفروض على أنشطته السياسية بالمراسلات الممتدة مع الشخصيات العامة والعلماء من أوروبا والشرق الأوسط. وفى سنة ١٨٩٩م، ومن خلال الحاخام اليهودى الرئيسى فى فرنسا، اتصل بتيودور هرتزل، المنظر الرئيسى للحركة الصهيونية. وحذر هرتزل من أن فلسطين «كثيفة السكان من غير اليهود ويقدسها ٣٩٠ مليون مسيحى و٣٠٠ مليون مسلم». وسأل: «بأى حق يطلب اليهود فلسطين لأنفسهم؟» إن الثروة لا يمكن أن تشترى فلسطين «التى لا يمكن الاستيلاء عليها سوى بقوة المدافع والسفن الحربية».

حرب الفلاحين على المستوطنين الصهاينة فى فلسطين

لا بد أن يوسف ضياء، كان قد عرف أن اشتباكات الفلاحين مع المستوطنين الصهاينة قد بدأت بالفعل. ففى معركة بتاخ ـ تيڤا، التى وقعت سنة ١٨٨٦م، تدخلت القوات العثمانية وقبضت على الكثير من الفلاحين، بعد قتل مستوطن يهودى وجرح عدد آخر من المستوطنين فى هجوم من القرية العربية المجاورة. وكان مثار غضب الفلاحين أنهم اعتبروا أن أرضهم قد بيعت للمستوطنين بعد أن كانوا قد سلموها للمرابين فى يافا وللسلطات المحلية. وبالنسبة للفلسطينيين فإن القرن العشرين بدأ فى بتاخ ـ تيڤا (Khalidi 1997: 96-115).

ومن الأمور ذات الدلالة أن هرتزل لم يذكر أبداً العرب ولو مرة واحدة فى كتابه الأشهر «الدولة اليهودية»، كما لو كانوا غير موجودين. بيد أن كاتبًا يهوديًا شهيراً، «أحاد ــ هاعام»، اعترف بعد زيارة استمرت ثلاثة أشهر لفلسطين فى سنة ١٨٩١م أنه كان «من الصعب أن تجد حقولاً غير مزروعة» بأيدى الفلاحين العرب. وأضاف أنه كانت هناك أرض ليست مملوكة لأحد، وهى الكثبان الرملية والجبال الصخرية، يمكن أن تستزرع بأشجار الفاكهة، ولكنها كانت بحاجة إلى العمل الشاق، والتنظيف والاستصلاح» (Khalidi 1997: 96-115).

وهو ما يجىء بنا إلى قصة برتقال يافا الشهير. وقد زعم الصهاينة على مدى زمن طويل أن برتقال يافا برتقالهم، وأنه نتيجة لاستصلاح الأرض «وتحويل الصحراء إلى أرض خضراء». ولكن الحقائق تحكى لنا قصة مختلفة.

لقد كان «العمل الشاق» الذى قام به العرب هو الذى حول التربة الرملية، وجهزها لزراعة الحمضيات فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر. كذلك تم تجفيف أراضى البرك والمستنقعات. وكانت النتائج مذهلة وساعدت على تحويل بؤرة الاقتصاد بعيداً عن جبل نابلس. وقد أدى استخدام الملاحة البخارية إلى وصول هذا المحصول التصديرى ـ الذى كان سنة ١٨٨٠م، ينمو فى حوالى خمسمائة حديقة موالح فى منطقة يافا ـ إلى السوق العالمية. وأدى المزيد من التوسع أنه فى سنة ١٩١٣م، كان يتم تصدير ما لا يقل عن ١,٦ مليون صندوق برتقال من يافا، مما جعله أهم محصول تصديرى فى فلسطين.

وفى تلك الأثناء كان يحدث تطور مشؤم فى المستوطنات الصهيونية بمنطقة الجليل. ففى سنة ١٩٠٧م سمحت السلطات العثمانية للمستوطنين بتسليح أنفسهم والدفاع عن أنفسهم ضد الهجمات المتزايدة التى كان يشنها الفلاحون الذين جُردوا من أراضيهم. وتم تكون منظمة يهودية سرية «بار جيورا» رفعت شعار «العمل العبرى»، وأدت إلى ظهور منظمة شبه عسكرية «الهاشومير». وسوف ندرس المضامين السياسية العنصرية لشعار العمل العبرى بمزيد من الدقة فى الفصل التالى. وفى وقت لاحق فى القرن العشرين، وبعد خلق دولة إسرائيل بعدة سنوات. أوضح الجنرال ييجال آلون فى كتابه

«صنع جيش إسرائيل ـ The Making of Israel Army»، أن «الهاشومير» كان بمثابة السابقة التى احتذت بها القوات المسلحة الإسرائيلية.

وفى ذلك الحين كانت الاشتباكات بين الفلاحين والمستوطنين الصهاينة تصير أكثر تأثيراً، وعلانية، وتم تسييسها بتدخل السياسيين العرب إلى جانب الفلاحين. وكان بيع أراضى قرية الفولة، فى منتصف الطريق بين الناصرة وجنين فى سهل مرج ابن عامر الشهير، إلى الصهاينة على يد نفس العائلة التجارية اللبنانية، وهى عائلة سوروق التى ذكرناها من قبل، سبباً فى وصول الأمور إلى ذروتها. فقد تم البيع هذه المرة إلى «الصندوق القومى اليهودى» (JNF)، والذى كان مؤسسة جديدة من مؤسسات الحركة الصهيونية مكرسة لشراء الأراضى، وكان يرأسه آرثر روبين، صهيونيًا آخر كان يعرف جيداً أنه لا يوجد مكان يمكن أن يكون «أرض بلا شعب». وقد اعترف فيما بعد بأنه لم يكن هناك أى أرض قابلة للزراعة غير مأهولة بالسكان. وأنه باتباع أسلوب شراء الأراضى من الملاك الغائبين «كان علينا أن نزيح الفلاحين الذين كانوا يزرعون الأرض».

كان الموظف الذى عينه العثمانيون للناصرة، «شكرى العسلى» الذى كان ابنا لإحدى العائلات الدمشقية البارزة، خطيباً جماهيرياً شهيراً وصحفياً معروفاً. وقد رفض تسليم حجج الأرض إلى الملاك الجدد، على الرغم من التعليمات الصادرة له من السلطات العثمانية. وقد استفاد العسلى من مساحة الحرية الكبيرة التى أتاحتها فى ذلك الحين فترة الإصلاحات الدستورية المتجددة وهاجم عملية البيع، والصهيونية بشكل عام، فى صحيفة دمشقية تحت اسم مستعار هو «صلاح الدين». وتمت إعادة طباعة مقالاته فى صحف بيروت وحيفا. وعندما أرسلت هاشومير ثلاثين مسلحاً لاحتلال الأرض، أمر العسلى القوات بطردهم. وعلى أية حال فإن رؤساءه سرعان ما أبطلوا أوامره وتم فرض البيع بالقوة. ومع هذا تصاعدت الأمور بشكل درامى وكثرت غارات الفلاحين المسلوبين على أرضهم المسلوبة، وفى بعض الأحيان كانت هذه الهجمات دموية. وكان هناك مناخ أكثر سياسية آخذاً فى التطور. فقد تم ترشيح العسلى ممثلاً عن دمشق فى البرلمان العثمانى الذى أعيد إحياؤه، وكان برنامجه «محاربة الصهيونية حتى آخر نقطة من الدماء». وفاز بالمقعد وأدى انتصاره بالنواب العرب الآخرين وبالصحافة

العربية إلى الثناء على المقاومة الفلاحية ضد الصهيونية باعتبارها القضية الأثيرة لدى الشعب العربى.

وهكذا كانت هناك حركة تحرر سياسى من نمط جديد تتكون عندما استولى البريطانيون على فلسطين بعد الحرب العالمية الأولى. وكان من ثمار تلك حركة أنها:

«وحدت الفلاحين الذين حاولوا فى يأس أن يتشبثوا بأرضهم أو يردوا على المستوطنين الصهاينة بأسلوب عنيف إذا فقدوها... ومعهم المفكرون والأعيان فى الحضر... وفى سنة ١٩٣٥م، تحولت جنازة فى حيفا لأول شهيد علنى فى حركة المقاومة المسلحة وهو الشيخ السورى عز الدين القسَّام، الذى عاش وعمل على مدى خمسة عشر عامًا بين الفلاحين المعدمين، وكان قد هاجر إلى المناطق العشوائية فى حيفا، ومات فى معركة ضد القوات البريطانية ـ تحولت إلى مظاهرة عامة ضخمة. وقد أدى هذا بدوره إلى إطلاق شرارة الإضراب العام سنة ١٩٣٦م، وإلى اندلاع ثورة فلسطين العربية ١٩٣٦ ـ ١٩٣٩م. وعلى حد تعبير أفضل دراسة عن القسَّام... لقد ألهبت وفاته حماسة الشعب الفلسطينى» (Khalidi 1997: 114-15) لقد بلغ جبل النار سن الرشد.

***